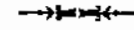


إلى أين ... ؟

للأستاذ محمد د محمد شاكر



جلست وصاحبي تحت جناح من الليل كأنه باز أسود قد طوى
أفقاً من السماء في كهف من جناحه . وطمس هذا الليل الدامس
ذلك الشعاع الذي لا يزال يرق به وجه صاحبي كلما سكن ظاهره
واطمأن ... وبقيت نفسه من وراء ذلك للسكون الوديع تتوقد
بأفكارها المشتعلة ، وترسل لمبيها يتلأل على محياء ويتموج .
وكان إحساسنا بمعنى الفارة الجارية ، يشير للنفس ثم يجثم عليها
متثاقلاً بوطأنه ، فلا هو يجملنا تتور فيخف ما نجد من ثقافته ،
ولا هو يتركنا نهداً

وبقي صاحبي صامتاً لا يتكلم ، ولكني كنت أكاد أجد
الألفاظ والماني وهي تعترك في داخله وتتساجر . أما إنى ما رأيت
— أو قل ما أحسسته — كاليوم . لقد كان كالمصفاة من اللب
مكفوفة في محيطها ، تدور وتتراكض ، وكان هو هذا المحيط . لقد

الجادة متروكة مهملّة قد تخربت وغطتها الحجارة ، فكنا نزل
من السيارة فنزح الأحجار من طريقها لنمشي ؛ وكنا إذا
بلغنا هضبة لم تقو السيارة على تسنمها نزلنا فربطنا للسيارات
بالجبال فخررناها بأكتافنا واحدة واحدة كما تبحر الدابة الحرون ،
واستمر بنا ذلك إلى للغروب ، وامتدت بنا هذه الطريق تسعين
كيلاً رأينا فيها الموت مما تعبنا ، ولم نقف إلا ساعة أكلنا فيها
وصلينا ، فلما أن غابت الشمس يئس الله لنا الخروج من هذه
الحرة ؛ فلما خرجنا منها إذا نحن حيال قصر الأزرق ليس بيننا
وبينه إلا أربعة أكيال أو أقل منها ؛ وكان إلى يسارنا أدغال
وعرة فيها نبت من نبت الصحراء ، فلم نجد بدءاً من دخولها ،
فدخلناها مكرهين نقوم بنا السيارة وتقدم وتعيد وتمتد حتى
أظلم الليل ، وبلغنا قاعاً مستويًا فوقتنا وأنحنا للميت ؛ وكنا حين
انتهينا إلى الأزرق بمد هذا الأذى كله ، كالذي (فر من الموت
وفي الموت وقع) !

(لها بغايا)

عن الطنطاري

رحمته حتى كدت مرات أقوم إليه أضع يدي على رأسه ، أقول :
ذلك مما يخفف عنه بعض ما يشتلي فيه من سمير الفكر . ولكني
كنت أهاب أن أشمره أني قد نفذت إلى بعض أسرارها التي يريد
كتمانها . فسكت معه ساعة أحتال في خواطري لفرض هذه
الأغلاق التي يضربها على ضمير نفسه ، فاست أشك أن بعض
الحديث إذا اشتكى خفف وأراح

لم تكن لي حيلة معه ، ولكن طول الصمت بيني وبينه في ظل
هذا الليل الأسود كان هو مفتاح هذه الأقفال الكثيرة . وكان
الحجاب الذي أسدله دجى الليل هو الحيلة التي جعلته يقاتل ويتمهل
في مجلسه يريد أن يستكتمني وهذا الليل سرّاً من القدر

ثم سكت سكته ظننت معها أن أنفاسه قد أبت عليه أن
يتنفس بها . لقد كان يجاهد نفسه : كان هو يأبى أن يتكلم ،
وكان الذي يجده في صدره من الضيق يأبى عليه إلا أن يتكلم .
كان نزاعاً هائلاً بين قوتين متحاربتين صارمتين عنيدتين متكافئتين ؛
لقد أثبتته ذلك حتى كاد يتمزق . إنني لأحس بل أسمع صوت التمزيق
الذي يحدث في نفسه هذا الصراع الخيف الرائع بين إلحاح هاتين
القوتين في تنازعهما . ومضت الدقائق وأنا أعدها ساعات من عجلة
النفس إلى تخفيف العذاب عن هذا الصديق البائس المحطم ، والذي
يأبى عليه عناده إلا أن يتجلد

ولكنه ما لبث أن شق كثافة هذا الصمت المبهم بكلمة
ضربت فيه :

لست أدري ! ! لست أدري ! !

لقد سمعت لكلماته في أذني صليلاً كما يصل الحجر الصلب على
ضربة معول من الحديد الصلب . لقد بقنتي بصليها حتى نسيت
أفكاري فيه منذ أول الليل . ولكني مرعان ما اجتمعت لحديثه
وأردت أن أحتال للتخفيف عنه ما استطعت . فقلت : وكأني أعلم
خبر ما يشير إليه :

كانا ليس بدرى . وهذه هي الحياة . إنك لا تستطيع أن
تترف الحقيقة حتى تخوض إليها الباطل خوفاً . إن للشك هو
أعظم أعمال النفس الإنسانية ، فإذا ما ابتلى به الإنسان فهو بين
نهادين : بين أن يهتدى فيلحق بالثروة فيستوي على هرش من
عروش الحكمة ، وبين أن يضل ويترايل فيتهدى على هذه

وأحداثها ، وكما كبرا وامتدّا من أيام العمر ، كبرت السماء التي تظلمها وترامت آفاقها ، واستحالت الأيام الصغيرة الأولى أشباحاً ضامرة لا تكاد تبين من دقتها وخفائها

ثم فُتِحَ القدر فتلاقيا بعد دهر طويل كما يتلاقى نجران في ظلمة الليل ، يتناظران لحظةً وشماعةً من بعيد لبعيد . هكذا عرفتُ . لقد كان هو يحسُّ في بعض أيامه قبل ذلك اللقاء ، أن للفلك قد دار دورته في القدر ، وأن القوة المسخّرة قد قذفت به في نظام من الجذب جديد ، فلم يكده حتى لمح له شماعة من بعيد يليح إليه بأصواته وكأنما يقول : أقبل ... هلم إلى ... هاأنذا ، هاأنذا !

ولم يلبث أن أتت هذا الفلك دورته ، فإذا هما يتناسمان في جوٍّ عطرٍ تنفخ من أردانه أنفاس الأيام الصغيرة الأولى ... أيام الطفولة التي تنمو فيها عواطف القلب وتفتتح ، كما تنمو الزهرة في أكاسمها تحت السّحر في مهد للفجر بين روح وشماع وندى واجتماعا ... فإذا هي غادة مضيئة زهر . لكان الزمن اختطفها كل هذا الدهر وتسلل بها في بعض مصانعها العجيبة ، وجعل يجهد بأنامله النابضة الدقيقة ، فهو يحلوها ويصقلها حتى إذا فرغ من فنه الذي احتق لها به ، ردّها إليه ينبوعاً من النور للضحك المرح يترقرق لعينيه ممثلاً في صورتها ... لقد شبت الصغيرة ، ولكن شبابها كان رقّة وحناناً في أنوثتها ، واستوت فكان استوائها دقة في فن من جمالها ، ونمت نمواً وضاحاً ، وكأنما كان يمشيها نور للكواكب ويرضعها روح الزهر ... لقد وجدها وهي تضوع وتلاذل من جميع نواحيها ... لقد كان يحسُّ إليه أن للنسيم من حولها يطوف بها متعبداً خاشعاً ثم يسمي إليه حاملاً نفحة من نفحات الجنة . فكان يحس دائماً أن جوها ينتقل إليه فينفذ إلى قلبه ، فيقعد هناك يتمم بحديثه بأخبارها أو يصف له منها ما يُوعِب هذا القلب الحزين افتتاناً ولوعة وحنيناً

لقد شبت الصغيرة ... ، فتصنّت عنها كل مطارف الطفولة ، وبجّلت جلوة العروس في زينة من اللبس والشباب . لقد خلعت كل قديمها ، ولكن شيئاً واحداً بقي كما هو ، لا بل بقي أقوى مما كان وأسمى . تلك هي روحها ، الروح القوية

المصخور الفكرية الماتية فيتحطم . وأى ذلك كان ، فالسألة كلها قدر محتوم يا صديقي ! رفعت الأقلام وجفّت الكتب

لقد رأيت شرارتين تنظيران من عينيه في جوف هذا الظلام ، ولكأنني اقتدحت بكلماتي من النار التي تكسُن في تلك للصخرة الفكرية الملمعة التي انطوت عليها ضلوع هذا الصديق المسكين ... ثم رأيتته يرتد مرة أخرى إلى صمته وصراعه ، ولكنني كنت أشعر به وهو يلين ويتخشع من كل ناحية . لقد كان هذا الصديق قاسياً عنيفاً ، ولكنه كان رقيقاً أيضاً . وكان صبوراً ، ولكنه ربما استكان للجزع . وكان مستوحشاً أبداً ، ولكنه ربما ألف وطاوع وانقاد ، وكأنه لم يجمع مرة . وكان راسخاً شامخاً وطيد الإيمان ، ولكنني كنت أنفذ إليه أحياناً فأجد الزلزلة التي في قلبه قد جعلته يتزعزع ويتطامن ويضطرب بعضه في بعض اضطراب الموج في تياره :

لست أدري ! ولكنني أريد أن أحدثك ، أريد أن أنبذ إليك من القول لتشركني في بعض الفكر ...

ثم سكت وسكن ، ولكنه أقبل على وقد جمع أطراف نفسه المبعثرة ، يقول :

... كانا صغيرين ، وكانت أيامهما الصغيرة لا تدرك معنى للنظرات التي تلتقي فتتماثل ، فتتعمد عقدة لا تحل . وهكذا نسيهما الزمن في معبده الآمن ، ثم انتبه يوماً فزفر بينهما زفرة واحدة فتفرقا . لم يدركا يومئذ شيئاً من معاني الفراق المهلكة التي تمحق للنفس بالتأمل والاهفة والحنين ، بل نظرّا ثم توادعا ، ثم اقترقا ثم نسيا . أو هكذا كان ، ولكنه لم يكن في الحقيقة نسياناً ، بل كان عملاً من أعمال القدر الغامضة ، كان تمهيداً للأحداث العظيمة التي تنهيا فتصنع للنفس الإنسانية صنعة جديدة لقد عرفت ذلك فيما بعد . وتمحّبت حواشي الحياة بينهما ، حتى رقت أيامهما الأولى ثم جعلت ررق حتى استحارت أحلاماً من الذكرى المهمة ترف على القلب رقيق للنسمات : لا ترى بل تحس ، ولا تمسك ولكنها تاتي عطرها في القلب وتمضي . ثم لقد نامت تلك العواطف الناضرة الصغيرة في مهد من النسيان ، ولكنها كانت تنمو أيضاً في جو هذا المهد

ومشي الزمن بينهما يقيم سدوداً وأسواراً من السنين

الأمرة التسلطة . تنغير كل شيء إلا عيونها التي تشق عن هذه الروح التي لا تنغير . فالنظرة الباسمة الخاطفة التي كانت تخضع بها تمرد ذلك النسبي العارم الصغير ، هي هي النظرة الباسمة الخاطفة التي جمت منه على الرجل فأضاء وميضها له الطريق ، وجبسته بأمرها وسلطانها على هذا الطريق نفسه وفي وقت معاً ... ثم نحا صاحبي بصره إلى قطع من الليل جاثم من عن يمينه وأطال النظر في جوفه . ثم خيل إلى أنه قد جعل يصني إلى همس الليل ، ويتسمع وسوسته الخافتة إلى رمال للمحجرات ، وبقي زماناً لا يكاد يتحرك ، ثم انتفض في مكانه انتفاضة خفيفة — ما رأيتها ولكن رعدتها جرت في دمي وأوصالي قشورية عرفتني ثم عاد إلى يتهمد ويقول :

هكذا هي ... أو هكذا كانت ... أما هو ...

وارتمشت للكلمات في نبراته وعلى شفثيه فأمسك وسكت ، وكأنه عزم ألا يتم ما بدأ من حديثه عن الرجل . تخفت أن ينقطع عني دون خبره ، وأردت أن أستفزه من حيث أعلم كيف أستنبط نبع حديثه ، فمجت إليه أقول :

أما هو — يا صاحبي — فقد كان مجنوناً تذشى له أعصابه المربضة الهالكة معانيها التي لا حقيقة لها في حقيقتها هي ، و ... فانهض على بصوته يقول :

كلا ، كلا ! لا تقل هذا . ليس الأمر كذلك لا تجعل عليه . إنك لا تعرفه ، ولو عرفته فإأظنك تحسن فهم حياته التي يعايش بها الناس . سأحدثك عنه ، لقد علمت أنك تريد أن تحماني على ذلك ، ولا بأس إذن . لا أقول لك إنني فهمته ، واستطعت أن أكشف لنفسى عن سر طبيعته ، كلا ! بل أقول لك إنني لأحس بكل ما يمتلج في قلبه من آلامه ، وكأنها عندي هي كل آلامه

إنه رجل قد امتلأ حكمة من طول ما جرب ، ومن عنف ما لقي من الأحداث التي نقضت بناء حياته مرة بعد مرة . نعم إنه لم يزل رجولته تجرته ، ولكن ... ولكني سأصفه لك على كل حال . سأحاول أن أعبر لك عن حقيقة معرفتي به . نعم ! هو إنسان غامض مبهم محير ، إذا صحبته رأيت من نقائضه التي تجتمع لك من أعماله وظواهره ، ما يلتوى بفكرك فيه من هنا إلى هناك ، حتى تجد وكأنما أنت تمشي منه في غمض من الأرض

منكر قد درست صواه وعفت رسومه وجهات معاله . لا تهتدي فيه أبداً إلى شيء تستطيع به أن تقول : هذا هو ! ! هذه هي الفكرة ... ، هذا هو الطريق ! !

سكت صاحبي قليلاً وقد طرح فكره في مذاهبه ثم عاد يقول :

فلنعد إلى حديثنا إذن ، لقد حملتني على أن أذهب بك بعيداً ... كذلك كانت هي كما وصفتها لك بل أروع مما وصفتها ، حين التقيا على غير موعد بتوقعه أحدهما ... أما هو فكان يومئذ رجلاً ضارباً متوقداً نائراً عتيقاً ، لا يزال يتمزج من جميع نواحيه كأن في تجاليد شخصه روح وحش شارد لا يألف الحياة ولا هي تألفه . كان فكرة شاذة عاتية عضلة تأتي أن تنهم لأحد أو تستذل . كان كالبركان في عنفوان فوريته تتقلع به صواعقه وزلازله . وهكذا كنت أبدأ أعرفه ، ولكنه كان مع كل ذلك يحب أن ينطوى على هذه المواصف التي تنقص برعودها بين جنبيه . ومن أجل ذلك كنت أجد في عينيه أحياناً بارقاً ساطعاً بتدارك و يقلمب ، حتى يجعل نظراته كأنها سياط من الأشعة يتضرم اللهب على عذباتها ... لا تعجب ، فأشهد لقد خيل لي مراراً أن نظراته هذه إنما تكوي من يتعرض لها أو من يجلد بها ، حتى لأخشى أن تكون ترك فيه من آثارها أخاديد تنفض كسلع النار على الجسد

لا تعجل ، ولا تشعط . لقد نعلم أنه كان — مع كل هذا الذي وصفت لك إنساناً وديماً رقيقاً . كان قلبه خلاصة صافية ممثلة من الحنان والشفقة . ولكنه أصيب بأحداث كثيرة جعلته ظنوناً حزيباً ، فهو لذلك يضيئ بما في قلبه أن يطلع على حقيقته الكاملة أحد من الناس . لم أر — فيمن رأيت من الناس — من هو أبعد منه مذهباً في الاحتراس والحذر ، ومع ذلك أيضاً ، فلأنتك رأيت في بعض ساعاته لظننت أنه رجل غمر يختدعه عن نفسه كل أحد ، ولكنه ليس كذلك . نعم ، لقد كان هشاً أحياناً بين يدي من يتناوله ... فإذا أخذ بالاعتفاف والقسر ، انقلب الذي فيه ضارباً لا يطيق ولا يطاق

هكذا كان أول ما تلاقيا ...

ثم سمعت صاحبي ، وخيل إلى أنه يضحك . لقد كان يخاف من ضحكه ، كأنما هو يسخر ، ورجع إلى بعد قليل فواصل حديثه :